حجاجية خطاب المقدمة عند النقاد العرب القدامي نماذج وقضايا

د. لخلافة كريم، مختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف، الكلية متعددة التخصصات بالرشيدية، جامعة مولاي إسماعيل بمكناس

مقدمة

يتسم الخطاب في تراثنا النقدي العربي في عرض قضاياه ومباحثه وفي التعبير عن مواقف النقاد بالطابع الحجاجي والتواصلي. فإذا تأملنا أشهر المدونات النقدية العربية القديمة، نجد الناقد العربي، كان حريصا على التفاعل والتواصل مع المتلقي منذ الخطاب التقديمي، ونجده كذلك يحاجج ويحاور مؤلفين آخرين معاصرين له أو سابقين عليه، عبر خطاب تواصلي يبينُ فيه دواعي التأليف ومسوغاته وظروفه وملابساته. فقد جرت العادة عند مؤلفي المدونات العربية التراثية، أن يبينوا في بداية مصنفاتهم مسوغات الإقبال على الكتابة والتأليف، وأن ينسبوا طلب الكتابة والتأليف إلى ذوي السلطة أو العلم ممن يعاصر المؤلف. لذلك نجد الناقد العربي القديم، في كثير من الأعمال النقدية، يشير إلى مخاطب معين طلب التوضيح أو التأليف في موضوع معين، أو الرد على مؤلِّفٍ آخر في قضية ما. وقد يبين أن عمله جاء جوابا على إشكال معرفي معين، أو قصد الإسهام في موضوع أثير في عصره... مما جعل الخطاب المصاحب لتلك الأشكال من الكتابة خطابا تواصليا حجاجيا، يستحضر فيه المؤلف قضية من القضايا الأدبية التي شغلت الأوساط النقدية، وعرفت تفاعلا وتبايُنا في الآراء والمواقف، فيجند الناقد قدراته الحجاجية للإسهام في إضاءة جوانب تلك القضية، ولبيان موقفه منها، ومناقشة الآراء المعارضة.

نجد ذلك واضحا جليا عند ابن قتيبة الدينوري في كتابه "الشعر والشعراء"، وعند عبد الله بن المعتز في مؤلفِه "البديع"، ونصادفه عند القاضي الجرجاني، في "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وعند أبي القاسم الآمدي في كتاب "الموازنة بين الطائيين"، ونسجله بوضوح عند ابن وهب الكاتب في مؤلفه "البرهان في وجوه البيان"، وعند كثير من النقاد العرب ابتداء من القرن الثالث الهجري.

لذلك سأحاول في هذا البحث أن أبرز طبيعة هذا الخطاب النقدي الحجاجي في بعض هذه المدونات، وأهم قضاياه الحجاجية، وكيف بُنِـي الحجاج في مقدمات هذه الكتب النفيسة.

فماهي مظاهر الحجاج في تلك المقدمات؟ وما أبرز القضايا التي كثر حولها الحجاج عند النقاد العرب القدامى في خطاباتهم التقديمية؟ وما هي أسس الحجاج في تلك الخطابات؟ وما أساليبه وخصائصه ؟ وكيف أسهم ذلك الحجاج في إغناء الخطاب النقدي العربي؟

تلك بعض الإشكالات التي ستحاول هذه الورقة البحثية إضاءتها.

1) الحجاج في خطاب المقدمة عند ابن المعتز وموقفه من المُـحْدث والبديع:

كتب عبد الله ابن المعتز كتاب "البديع" في أواخر القرن الثالث الهجري، وقد بين في مقدمته أن الكتاب يأتي ردا على من يزعم أن البديع من اختراع الشعراء المحدثين، فحاجج المؤلف في كتابه من يزعم ذلك، واستدل فيه بكلام العرب في الجاهلية والإسلام، وبنصوص من الخطاب القرآني والحديث النبوي وكلام الصحابة، تضمنت فنونا من البديع ليثبت أن هذه الفنون قديمة قدم الكلام العربي.

يقول عبد الله بن المعتز في مقدمته: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليُعْلَم أن بشارا وأبا نواس ومسلما ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسْبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثُر في أشعارهم فعُرِف في زمانهم حتى سمِّي بهذا الاسم فأُعرِب عنه ودلَّ عليه، ثم إن حبيبَ بن أوس الطائي من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عُقبى الإفراط وثمرة الإسراف، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قرئتْ من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ويزداد حظوة بين الكلام المرسل، وكان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال، ويقول: لو أن صالحا نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه، وغلب على مدِّ ميْدانه، وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى"[1].

1- البديع لعبد الله بن المعتز، شرحه وحققه عبد الله مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى 1433هـ/ 2012 ص: 9-10.

إن الناظر في هذه المقدمة ليلفته طابعها الحجاجي، الذي يتجلى من بدايتها، إذ وضح ابن المعتز ما قدمه في كتابه من شواهد وأدلة للدفاع عن موقف القاضي بأن البديع ليس من وضْع المحدثين، بل هو قديم في كلام العرب، فهو وارد قبلهم في القرآن الكريم، وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وفي كلام الصحابة، وفي أشعار العرب وكلامهم.

فلننظر إلى قوله: " ليُعْلم أن بشارا وأبا نواس ومسلما ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسْبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثُر في أشعارهم فعُرِف في زمانهم حتى سمِّي بهذا الاسم فأُعرِب عنه ودلَّ عليه".

فالقصد من مؤلفه إذن تصحيح أحكام سادت في عصره تزعم أن ألوان البديع مُحْدثة، وأنَّ الشعراء المحدثين، من أمثال بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام قد أحدثوا فنون البديع، وأنهم سبقوا إليها. وهذا قول لا أساس له، عند ابن المعتز، فالإبداع العربي منذ العصر الجاهي، يزخر بألوان البديع، لكن بقصد ودون إسراف، ولما جاء الإسلام اغتنى هذا الإبداع بما تحقق للقرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الصحابة من إبداع في هذا المجال. فكيف يزعم المحدثون أن البديع من ابتكارهم؟ ثم دافع عن موقفه المؤكد على ضرورة الاعتدال في إيراد البديع، وانتقد أبا تمام الذي أسرف وأفرط فيه، " ثم إن حبيبَ بنَ أوس الطائي من بعدهم شعف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عُقبى الإفراط وثمرة الإسراف".

وفي المقابل أشاد ابن المعتز بطريقة المتقدمين، وعدم احتفالهم بالبديع، إذ لم يكونوا يكثرون منه. فلنتأمل قوله: "وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قُرِئتْ من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ويزداد حظوة بين الكلام المرسل". وهذا دليل على أن من خصائص الشعر العربي القديم الاعتدال في البديع، وعدم الإسراف في إيراده، وبالتالي فهو حجة على أبي تمام، لأنه أفرط وأسرف في استعماله، فأساء أحيانا بسبب ذلك، وأحسن أحيانا أخرى: "فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عُقبى الإفراط وثمرة الإسراف".

ليس هذا فحسب بل إن ابن المعتز حاجَجَ في قضية أبي تمام وإسرافه في البديع فشبهَهُ بصالح ابن عبد القدوس في ضرب الأمثال: "وكان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال". ثم بسط في كتابه هذه القضية، فاستدل على ما قاله، وتناول في أبواب الكتاب وفصوله أساليب البديع بإسهاب، مستشهدا لها من القرآن الكريم والأحاديث

النبوية وكلام الصحابة، وكذا من الشعر العربي وكلام العرب. فأجاد في ذلك وأمتع، وكان كتابه" البديع" – الذي يعد من أوائل الكتب التي ألفت في البلاغة – بديعا بحق في هذا الباب.

ويمكن توضيح الخطاب الحجاجي لابن المعتز على الشكل التالي:

القضية موضوع الحجاج: نشأة البديع في الشعر العربي.

موقف ابن المعتز: البديع قديم قدم الكلام العربي.

الموقف المعارض: ألوان البديع مُحْدثة، أحدثها الشعراء المحدثون، من أمثال بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام.

حجج ابن المعتز: استدل ابن المعتز بحجج أدبية جاهزة، فقد حشد أمثلة وشواهد من الشعر الجاهلي واللغة والقرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الصحابة وكلام العرب تتضمن أساليب متنوعة من البديع.

طبيعة الحجج: حجج قوية ومقنعة.

نتيجة الحجاج: البديع قديم قدم الإبداع العربي وليس من ابتكار الشعراء المحدثين.

وفيما يلي توضيح لتراتبية الحجج عند ابن المعتز:

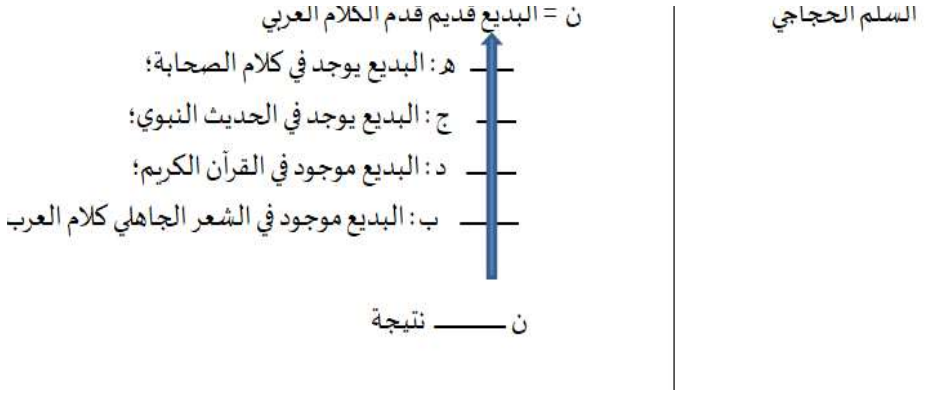

أساليب البرهنة والاستدلال:

وظف ابن المعتز في حجاجه عدة أساليب حجاجية، أهمها:

1) **أسلوب السرد**

وعلى أساسه بسط ابن المعتز مظاهر البديع في الكلام العربي قبل ظهور الشعر المحدث. ومن هذا الأسلوب أيضا قوله: "وكان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال...".

2) **أسلوب المقارنة**

– المقارنة بين الشعر القديم والشعر المحدث في أمر البديع: الاعتدال مقابل الإسراف.

– المقارنة بين أبي تمام في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال: " وكان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال".

3) **أسلوب الشرح والتفسير**: ويتجلى في تفسير ابن المعتز وشرحه موقفه القاضي بأن البديع قديم في كلام العرب، وأنه ليس من ابتكار الشعراء المحدثين.

4) **أسلوب المثال**: **إذ** قام المؤلِّف بسرد أمثلة البديع في كلام العرب وفي القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الصحابة.

أساليب الحجاج البلاغية:

جاء خطاب ابن المعتز في هذه المقدمة خطابا بليغا غنيا بالأساليب الخبرية التي أدت أدوارا حجاجية واضحة، وأبرزها:

- ✓ **الخبر المؤكد**:
- ✓ "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض...". "فعُرِف في زمانهم...".
- ✓ "فأُعرِب عنه ودلَّ عليه". "ثم إن حبيبَ بن أوس الطائي من بعدهم شعَف به...".
- ✓ **أسلوب التعليل**: "ليُعْلم أن بشارا وأبا نواس ومسلما ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسْبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثُر في أشعارهم فعُرِف في زمانهم...".
- ✓ **أسلوب الخبر المنفي**: " لم يسْبقوا إلى هذا الفن".
- ✓ **أسلوب القصر**: "لم يسْبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثُر في أشعارهم فعُرِف في زمانهم..." "إنما كان يقول..."
- ✓ **الوصل**: "فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض...".

الروابط الحجاجية:

جاء نص ابن المعتز غنيا بالروابط، التي حققت له التماسك والاتساق، وزادت من طابعه الحجاجي فهي فضلا عن وظائفها النصية أدت وظائف حجاجية، ومن هذه الروابط: حتى – ثم – الواو – لكنَّ – إنَّ – لم – الفاء –هذا – قد – ما – الذي – تلك – إنما – ذلك – الضمائر.

وهكذا يتبين أن مقدمة عبد الله بن المعتز مقدمة غنية بالحجاج وأساليبه؛ فقد عبر عن موقفه من البديع في كلام العرب، وأنه قديم قدم الإبداع العربي، وردَّ على من يزعم أنه

محدث، بأدلة جاهزة من الكلام العربي، متبعا استراتيجية حجاجية واضحة ركز فيها على الدليل اللغوي عبر الاستشهاد بكلام العرب وبالقرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الصحابة. وجاء خطابه غنيا بأساليب البرهنة والاستدلال وبالأساليب البلاغية والروابط الحجاجية.

وقد تنوعت الروابط الحجاجية في نص ابن المعتز بين الروابط الدالة على الوصل، والروابط الدالة على القصر، والروابط الدالة على التأكيد أو النفي أو الاستدراك أو الإضافة، وبين الروابط الدالة على الإحالة (أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر). فجاء النص متماسكا ومتسقا ومقنعا.

2) **خطاب المقدمة عند ابن قتيبة:**

2 -1- تنوع موضوعات الحجاج وقضاياه في خطاب المقدمة عند ابن قتيبة:

منذ القرن الثالث الهجري قدَّمَ ابن قتيبة الدينوري (ت270هـ) لكتابه "الشعر والشعراء"، بمقدمة نقدية نفيسة، تعد من أغنى وأخصب المقدمات النقدية في تراثنا النقدي. وقد تطرقت هذه المقدمة لأبرز قضايا النقد العربي القديم، كقضية اختيار الشعر، وقضية اللفظ والمعنى، وقضية الطبع والصنعة، وقضية القدم والحداثة وقضية بناء القصيدة.

بدأ ابن قتيبة تقديمه لكتاب "الشعر والشعراء"، ببيان منهجه في تأليف الكتاب، فقال: "هذا كتابٌ ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يُعْرف باللقب أو بالكُنية منهم. وعمَّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطاء[1] في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون. وأخبرتُ (فيه) عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها، إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الأول"[2].

ثم توجه إلى المتلقي/ المخاطَب محاجِجا وموضِّحا: "ولعلك تظن – رحمك الله– أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدعَ شاعرا قديما ولا حديثا إلا ذكره ودلَّك عليه،

1- هكذا كتبت في الكتاب، وعلق المحقق بأنها صحيحة، ينظر الشعر والشعراء، الهامش 2 ص 59.
2- الشعر والشعراء، ص 59.

وتقدِّرُ أنْ يكون الشعراء بمنزلة رُواة الحديث والأخبار، والملوك والأشراف، الذين يبْلغهم الإحصاء، ويجمعهم العدد"[1].

فتناول ابن قتيبة هذه الملاحظة بالرد والتوضيح، مبينا أن الشعراء المعروفين عند "قبائلهم وعشائرهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط – بهم محيط – أو يقفَ من وراء عددهم واقف، ولو أنفدَ عُمْره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال"[2].

ونقل لنا أخبارا عن العلماء الرواة وكيف إنهم لم يكونوا يحفظون إلا القليل من الشعر وأن ما فاتهم وما ضاع ولم يصل من أشعار العرب كثير[3].

لقد استحضر ابن قتيبة في هذه المقدمة المتلقي، وتوقف عند الجوانب التي قد يلومه على إغفالها، من قبيل أنه لم يستوعب في كتابه جميع الشعراء، فقدم حججَه المسوغة لطريقته ومنهجه، ويمكن عرض تلك الحجج على الشكل الآتي:

القضية موضوع الحجاج	وجوب استيعاب كتاب "الشعر والشعراء" لجميع الشعراء القدامى والمحدثين.
موقف ابن قتيبة	استيعاب كتاب "الشعر والشعراء" لجميع الشعراء القدامى والمحدثين، أمر صعب المنال.
حجج ابن قتيبة:	الحجج الجاهزة: نقل أخبار العلماء الرواة التي تبين أنهم لم يكونوا يحفظون إلا القليل من الشعر. الحجج التقنية: 1) الشعراء المعروفون عند "قبائلهم وعشائرهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط – بهم محيط – أو يقفَ من وراء عددهم واقف، ولو أنفدَ عُمْره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال". 2) العلماء الرواة لم يكونوا يحفظون إلا القليل من الشعر. 3) ما فات العلماء الرواة من الشعر كثير. 4) ما ضاع ولم يصل من أشعار العرب كثير.
النتيجة	ابن قتيبة محق في الاقتصار على ما تضمنه كتابه من شعراء.

1- المصدر السابق، ص 60.

2- المصدر السابق، ص 60.

3- الشعر والشعراء ، ص 61، وقد أكد هذه الحقيقة الدارسون العرب، ينظر على سبيل المثال شوقي ضيف.

وقد صار ابن قتيبة على هذا المنهج في المقدمة، إذ تناول جملة من القضايا النقدية المشهورة في النقد العربي القديم، وأخذ يبسط موقفه ورأيه فيها، ويحاجج ويستدل على صواب رأيه، ويرد على من يخالفه في ذلك. وسأركز في هذا البحث على قضية **"القدم والحداثة"**، لكونها أبرز القضايا النقدية في هذه المقدمة.

فما هو موقف ابن قتيبة من هذه القضية التي شغلت النقاد العرب قديما وحديثا؟ وكيف دافع عن وجهة نظره؟ وما آثار موقفه على النقاد العرب الذين جاؤوا بعد؟.

يقول ابن قتيبة:« ولم أسلكْ فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له، سبيل من قلَّد، أو استحسنَ باستحسان غيره. ولا نظرتُ إلى المتقدِّم منهم بعين الجلالة لتقدُّمِه، وإلى المتأخِّر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين، وأعطيتُ كلاً حظَّه، ووفَّرْتُ عليه حقَّه.

فإنِّي رأيتُ مِنْ علمائنا مَنْ يستجيدُ السخيف لِتَـقدُّم قائله، ويَضَعُهُ في مُتَخيِّرِه، ويُرْذِلُ الشعر الرَّصِينَ، ولا عيبَ له عنده إلا أنه قِيلَ في زمانه، أو أنه رأى قائلَه.

ولمْ يَقْصُرِ اللهُ العلمَ والشعْرَ والبلاغةَ في زمن دون زمن، ولا خَصَّ به قوما دون قومٍ، بل جعلَ ذلك مشتركا بين عباده في كل دهرٍ، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شرف خارجيةً في أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدون محْدثين. وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: لقد كثُرَ هذا المحْدَثُ وحسُنَ حتى لقد هممت بروايته.

ثمَّ صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخُريمي والعتَّابي والحسن بن هانئٍ وأشباهِهِمْ. فكل من أتى بحَسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولمْ يضَعْهُ عندنا تأخرُ قائله أو فاعله، ولا حداثةُ سِنِّهِ. كما أن الرديءَ إذا وردَ علينا للمتقدِّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدُّمُه»[1].

وانطلاقا من هذا النص نستخلص أن ابن قتيبة اعتمد على الحجاج في الرد على النقاد العرب القدامى في قضية الشعر المحدث، ويمكن توضيح ذلك على الشكل الآتي:

القضية موضوع الحجاج: قضية الشعر القديم والمحدث.

موقف ابن قتيبة: الأساس في ا الاختيار بين الشعراء هو معيار الجودة الفنية.

1- الشعر والشعراء 62-63.

موقف بعض النقاد القدامى: الأساس في الاختيار بين الشعراء هو السبق الزمني. " فإنِّي رأيتُ مِنْ علمائنا مَنْ يستجيدُ السخيف لِتَـقدُّمِ قائله، ويَضَعُهُ في مُتَخيِّره، ويُرْذِلُ الشعر الرَّصِينَ، ولا عيبَ له عنده إلا أنه قِيلَ في زمانه، أو أنه رأى قائلَه".

حجج وأدلة ابن قتيبة

1) **الأدلة الجاهزة:**

سرد ابن قنيبة نماذج من الشعراء كانوا يعدون عند النقاد شعراء محدثين، مع أن شعرهم يعد قديما. "كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعَدون محْدثين". وسرد لنا بعض مواقف النقاد منهم. " كان أبو عمرو ابن العلاء يقول: لقد كثُرَ هذا المحْدَثُ وحسُنَ حتى لقد هممت بروايته".

2) **الأدلة التقنية:**

اتبع الناقد استراتيجية حجاجية تقوم على الإقناع المنطقي العقلي، ركز فيها على عدم اقتصار موهبة الشعر على القدامى، وبسطها على الشكل التالي:

- ✓ لمْ يَقْصُرِ اللهُ العلمَ والشعْرَ والبلاغةَ في زمن دون زمن؛
- ✓ ولا خَصَّ به قوما دون قومٍ؛
- ✓ بل جعلَ الله ذلك مشتركا بين عباده في كل دهرٍ؛
- ✓ كل قديم كان حديثا في عصره ؛
- ✓ إبرازه تناقض النقاد القدامى واضطرابهم في هذه القضية،" كان أبو عمرو ابن العلاء يقول: لقد كثُرَ هذا المحْدَثُ وحسُنَ حتى لقد هممت بروايته".

النتيجة :

المعيار العلمي الذي ينبغي اعتماده في المفاضلة بين الشعراء، هو معيار الجودة الفنية. فالشعر الجيد هو المقدم عند ابن قتيبة، مهما كان زمن قوله، والشعر الرديء رديء عنده، وإن كان قائله شاعرا قديما. "فكل من أتى بحَسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولمْ يضَعْهُ عندنا تأخرُ قائله أو فاعله، ولا حداثةُ سِنِّهِ. كما أن الرديءَ إذا وردَ علينا للمتقدِّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدُّمُه".

طبيعة الحجج: حجج متنوعة تجمع بين الأدلة الجاهزة والأدلة التقنية.

ويمكن توضيح حجج ابن قتيبة وتراتبيتها وفق السلم الحجاجي التالي:

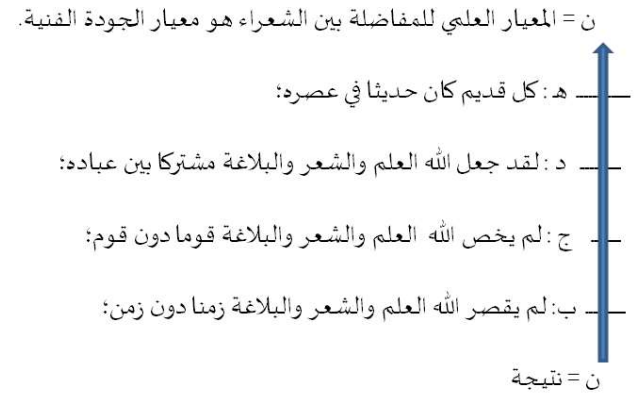

إن قارئ هذه المقدمة سيسجل بإعجاب طابعها الحجاجي، والنفس الاستدلالي لصاحبها، فلننظر إلى قوله مفسرا موقفه من القديم والمحدث، وإلى أدلته المنطقية على ذلك، إذ كل قديم محدث في زمانه، قديم في غير زمانه، "ولمْ يَقْصُرِ اللهُ العلمَ والشعْرَ والبلاغةَ في زمن دون زمن، ولا خَصَّ به قوما دون قومٍ، بل جعلَ ذلك مشتركا بين عباده في كل دهرٍ، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شرف خارجيةً في أوله". ثم لننظر إلى **الأدلة الجاهزة** التي يسوقها، ومنها موقف أبي عمرو من أشعار جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم، الذين كانوا يُعَدون في زمانهم محْدثين، قال أبو عمرو ابن العلاء: "لقد كثُرَ هذا المحْدَثُ وحسُنَ حتى لقد هممت بروايته". ثم إن هؤلاء الشعراء صاروا قدامى فيما بعد. ثم لنتأمل كيف استمر مدافعا عن موقفه القاضي باعتماد مبدأ الجودة الفنية في الاختيار، "فكل من أتى بحَسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولمْ يضَعْهُ عندنا تأخرُ قائله أو فاعله، ولا حداثةُ سِنِّهِ. كما أن الرديءَ إذا وردَ علينا للمتقدِّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدُّمُه".

فالشعر الجيد هو المقدم عند ابن قتيبة، مهما كان زمن قوله، والشعر الرديء رديء عنده، وإن كان قائله شاعرا قديما. ليس هذا فحسب، بل قرر ابن قتيبة حقيقة علمية تتعلق بالعلم والشعر والبلاغة، أو لنقل بالإبداع عموما، وأنه متاح في كل زمان: "ولمْ يَقْصُرِ اللهُ العلمَ والشعْرَ والبلاغةَ في زمن دون زمن، ولا خَصَّ به قوما دون قومٍ، بل جعلَ ذلك مشتركا بين عباده في كل دهرٍ".

يقوم موقف ابن قتيبة من مسألة القدم والحداثة إذن على الركائز التالية:

- ✓ وجوب العدل والإنصاف في التعامل مع الشعراء قدماء ومحدثين.
- ✓ رفض الاعتماد على زمن الشعر مقياسا نقديا للمفاضلة بين الشعراء.
- ✓ اعتماد مبدإ الجودة الفنية مقياسا للحكم على الشعراء والمفاضلة بينهم.
- ✓ رفض تقليد النقاد السابقين، ومسايرتهم في أحكامهم ومواقفهم.

لذلك صرح في النص السابق باعتراضه، على مواقف بعض النقاد من الشعر المحدث وتعصبهم الأعمى للقديم، وساق اعتراضه ذاك على سبيل الاستغراب والإنكار: " فإنِّي رأيتُ مِنْ علمائنا مَنْ يستجيدُ السخيف لِتَـقدُّمِ قائله، ويَضَعُهُ في مُتَخيِّرِه، ويُرْذِلُ الشعر الرَّصِينَ، ولا عيبَ له عنده إلا أنه قِيلَ في زمانه، أو أنه رأى قائلَه".

وهذا ما جعل الدارسين والباحثين في النقد العربي القديم ينوهون بهذا الموقف، وبهذه النظرة التوفيقية التي سوف تؤثر على مواقف النقاد بعده. يقول محمد خير:"إن ابن قتيبة قد خطا بالنقد خطوة جريئة ومتقدمة، كان لها أثرها الواضح في تحول النظرة النقدية إلى مسألة القديم والمحدث، وذلك لما جعل معيار الجودة الفنية معيارا نقديا للمفاضلة والتقديم، ولما ألغى عامل الزمن، واعترف بالشعر المحدث. ليس هذا فحسب بل التزم بهذا الموقف في كتابه، فجمع بين الجاهلي والإسلامي والمحدث من الشعراء"[1].

أساليب الحجاج البلاغية:

جاء خطاب ابن قتيبة غنيا بأساليب الحجاج البلاغية وبالروابط الحجاجية. ومن المعلوم عند الدارسين المحدثين في البلاغة الجديدة وفي التداوليات أن هذه الأساليب والروابط مما يقوي الحجاج ويدعمه. إذ للبلاغة علاقة وثيقة بالحجاج، فهي التي تمده بكثير من الآليات الحجاجية، ومنها يستمد الحجاج دعائمه وأسسه، يقول صابر الحباشة في شأن هذه العلاقة: " ليس الحجاج علما / فنا يوازي البلاغة، بل هو ترسانة من الأساليب والأدوات يتم اقتراضها من البلاغة (ومن غيرها كالمنطق واللغة العادية...) ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج مع البلاغة في كثير من الأساليب. ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية"[2].

1- فصول في النقد العربي وقضاياه، ص: 120

2- التداولية والحجاج ، مداخل ونصوص، صابر الحباشة، صفحات للنشر، دمشق (2008) ، ص 50.

وغني عن البيان أن أساليب البلاغة العربية، هي أساليب تداولية وحجاجية، لذلك فهي تضطلح بأدوار مهمة في الحجاج والإقناع، وتمد المحاجِج بآليات الحجاج البلاغية التي يكون أحوج ما يكون إليها، وهو يحاجج؛ إذ لا بد له من الإثبات والنفي والتأكيد والشرط والأمر والنهي والاستفهام والتعجب والإنكار والتقرير والمقارنة وضرب المثل... وكل ذلك متاح في البلاغة العربية. يقول الحباشة: "ولعله من الطريف بمكان الإشارة إلى أن الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية إنشائية، بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية (كما هو مطلوب في الحجاج). ومن هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية"[1].

وعندما نتأمل خطاب المقدمة عند ابن قتيبة، نجده قد اعتمد على الحجاج البلاغي، ومن أساليب هذا الحجاج عنده:

- ✓ **الخبر المنفي**: وظف ابن قتيبة أسلوب النفي في خطابه، لينفي عنه كل ما يخالف العدل والإنصاف في الاختيار بين الشعراء، وليبرئ نفسه مما اتصف به بعض النقاد المتعصبين للقديم. ومن ذلك عنده: قوله: "لم أسلك فيما ذكرته... ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه..."، " ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة في زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم..."
- ✓ **الخبر المؤكد**: وبهذا الأسلوب يؤكد الناقد ما يثبت مواقفه، ومن أمثلته: قوله: "فقد كان جرير والفرزدق والأخطل...." "فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له...".
- ✓ **القصر**: "و يعد أسلوب القصر من أهم الأساليب البلاغية المدعمة للحجاج، إذ به يتم تصحيح المفاهيم والتصورات عند المحاجِج، لأنه يثبت للمفاهيم ما يميزها وينفي عنها ما علق بها من أوهام في اعتقاد المحاجَج، ولذلك نجده غالبا في الخطابات الحجاجية، ومن أمثلته في هذا الخطاب، قول ابن قتيبة: "ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة في زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا بين عباده في كل دهر." ثم قال واصفا منهجه في الاختيار: "ولا نظرت إلى المتقدم .... بل نظرت بعين العدل..."، فنفى عن منهجه ما يقدح فيه، وأثبت له ما يجعله منهجا علميا.

1- التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، ، صابر الحباشة ص50.

- ✓ **أسلوب الإضراب**: وكل أسلوب قصر، جاء بالرابط "بل"، فهو يتضمن أسلوب إضراب، "بل نظرت بعين العدل على الفريقين..." .
- ✓ **أسلوب الوصل**: وقد كثر هذا الأسلوب في المقدمة، حتى لا تكاد تخلو منه فقرة، نظرا لأهميته. ووظيفته هنا الوصل بين الحجج الدالة على عدله وإنصافه في الاختيار بين الشعراء، فانظر إلى قوله: "نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كل ذي حق حظه، ووفرت عليه حقه". كيف جاءت الحجج موصولة بعضها إلى بعض، وكيف أثبت لمنهجه من الصفات ما يجعله بعيدا عن التعصب، متصفا بالعدل.

الروابط الحجاجية:

دافع أوزفولد ديكرو وأنسكومبر على أن "اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية، وظيفة حجاجية، أي أن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي المعنى وكل الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية"[1]. معنى ذلك أن اللغات الطبيعية تشتمل على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج. "فاللغة العربية، مثلا، تتوفر على عدد كبير من الروابط والعوامل الحجاجية التي لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية. نذكر من هذه الأدوات: لكن، بل، إذن، حتى، لاسيما، إذ ، لأن ، بما أن ، مع ذلك، ربما، تقريبا، إنما، ما ، إلا..."[2].

ويميز ديكرو بين صنفين من المؤشرات والأدوات الحجاجية[3]:

1- الروابط الحجاجية (les connecteurs)

2- والعوامل الحجاجية (les opérateurs).

فالروابط تربط بين قولين، أو بين حجتين، أو أكثر، وتُسنِد لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة. ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات التالية: بل، لكن، حتى، إذن ، لأن ، بما أن ، إذ....

1- الحجاج الموسع: الأسس والمبادئ، أبو بكر العزاوي، مطبعة وراق بلال، فاس – المعرب، الطبعة الأولى 2022م، ص 133.

2- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت – لبنان، ط 2 (2009)، ص32.

3- المرجع السابق ص32، وقد درس أبو بكر العزاوي الروابط (بل – لكن – حتى) في هذا الكتاب وقارن بينها، تنظر الصفحة 59 وما بعدها من المرجع نفسه.

أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما. ومن أمثلة العوامل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما...إلا، وجل أدوات القصر.

وفي خطاب المقدمة لابن قتيبة روابط متنوعة قامت بأدوار حجاجية بارزة، بل ما كان للأسلوب البلاغي أن يضطلع بوظائفه السالفة الذكر لولا هذه الروابط، وقد جاءت متنوعة بين:

- ✓ الروابط الدالة على الوصل وأهمها: " الواو".
- ✓ الروابط الدالة على النفي: لا – لم – دون ، وقد تكررت في النص عدة مرات.
- ✓ الروابط الدالة على القصر: وقد تحققت بالنفي المتبوع ب "بل".
- ✓ الروابط الدالة على التأكيد: وبهذه الروابط تم تأكيد الخبر، لأن السياق يقتضي ذلك، فالمخاطب ليس خالي الذهن، بل شاك أو منكر، وهو مقام يقتضي التأكيد، ومن أبرزها: "لقد" – "قد" – "الفاء" "فإني" – " أن" .
- ✓ الرابط الدال على الشرط: " إذا" .

إن هذه الروابط قد أغنت حجاج الخطاب عند ابن قتيبة، وهي فضلا عن ذلك حققت للنص تماسكه واتساقه، وجعلته خطابا بليغا مؤثرا بأسلوبه وإيقاعه الذي زادت من جماليته أساليب السجع، والطباق والجناس والتكرار.

يتبين مما سبق أن ابن قتيبة نجح في جعل خطابه التقديمي خطابا حجاجيا بليغا، بفضل ما دعمه به من أدلة وحجج نابعة من مجال اشتغاله، وبفضل الأساليب البلاغية والروابط اللغوية التي زادت من قوة الحجاج في مقدمته.

3) خطاب المقدمة عند أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني:

فإذا وصلنا إلى القرن الرابع الهجـــري، ألفينا الطابع الحجاجي لخطاب المقدمات في المؤلفات النقدية، قد ازداد حدة، إذ عرف النقد الأدبي عند العرب في هذا القرن تطورا واضحا، وتساجل النقاد حول قضايا نقدية متنوعة.

ومن أشهر القضايا النقدية التي شغلت نقاد القرن الرابع: قضية اللفظ والمعنى، والسرقات، وعمود الشعر ومذاهب الشعراء بين المحافظة والتجديد، والموازنة بين الشعراء على أساس منهجي، ولعل كتاب "الموازنة" للآمدي، وكتاب "الوساطة" للقاضي الجرجاني من أوضح الأدلة على ذلك. يقول محمود السمرة: "في هذا الجو ظهرت أشهر حركتين

نقديتين في تاريخ النقد الأدبي: دارت الأولى حول أبي تمام والبحتري وأنتجت لنا كتاب "الموازنة بين الطائيين" للآمدي، ودارت الثانية حول المتنبي وعنَّفت في نقده، أو غالت في تمجيده، مما احتاج إلى وساطة، فكان كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني"[1].

ويعدُّ كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للناقد علي بن عبد العزيز الجرجاني الملقب بالقاضي (ت366ه)،من أغنى كتب النقد الأدبي العربي، ومن أخصب كتب النقد التطبيقي في القرن الرابع الهجري. وقد جاء الكتاب في سياق حجاجي، استدعته الخصومة حول شعر المتنبي[2] بين مؤيديه وبين معارضيه وخصومه، وكان معاصرا له. فقد كتب الصاحب بن عباد رسالة عنوانها:" الكشف عن مساوئ المتنبي"، وكان أبو الفتح ابن جني قد ألف كتاب "الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي"[3]، وكان يرفع من قدره.

في هذا السياق أتى كتاب الوساطة، الذي صرح فيه صاحبه أنه يريد أن يكون حَكَما في هذا الخلاف حول شعر المتنبي، وأن يسلك طريق العدل والإنصاف، بعيدا عن التعصب والهوى، فكان عمله عملا نقديا حجاجيا بامتياز. وقد دافع فيه عن المتنبي وردَّ به على الصاحب ابن عباد، وكان من نُدمائه، فلم تمنعه صلته به عن الانتصار للمتنبي. قال الثعالبي في كتابه اليتيمة: "ولما عمل الصاحب ابن عباد رسالته المعروفة في إظهار "مساوئ المتنبي" عمِلَ القاضي أبو الحسن كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" فأحسن وأبدع، وأطال وأطاب، وأصاب شاكلة الصواب، واستولى على الأمر في فصل الخطاب، وأعرب عن تبحره في الأدب وعلم العرب، وتَمَكُّنِه من جودة الحفظ وقوة النقد، فسار الكتابُ مسيرَ الرياح، وطار في البلاد بغير جناح"[4].

وقد اعتمد القاضي الجرجاني في خطابه التقديمي على مجموعة من المقدمات التي فسر بها إقدامه على مناصرة المتنبي والدفاع عنه.

وفيما يلي بيان للاستراتيجيات الحجاجية عند القاضي الجرجاني وللمقدمات التي انطلق منها في خطابه الحجاجي:

1- القاضي الجرجاني: الأديب الناقد، د محمود السمرة، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1979م، ص 54-55 .

2- وهي خصومة أثْرَتْ المكتبة النقدية العربية، نظرا لكثرة الكتب والرسائل المؤلفة في هذا الموضوع.

3- الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، تح د. محمد غياض، دار الحرية للطباعة، بغداد (1973).

4- تنظر مقدمة محقق الوساطة، ص2.

القضية موضوع الحجاج: المتنبي بين أنصاره وخصومه.

موقف القاضي الجرجاني: الشاعر المتنبي تعرض للظلم من خصومه، والعدل يقتضي إنصافه.

المواقف الأخرى:

1) موقف إعجاب وانبهار بالمتنبي؛

2) موقف عدائي من المتنبي؛

استراتيجيات القاضي الجرجاني الحجاجية في الدفاع عن المتنبي:

اعتمد القاضي الجرجاني في خطابه الحجاجي على استراتيجية حجاجية تقوم على ما يلي:

1) الاستراتيجية الأولى: تقديم نفسه في صورة القاضي والحكم العدل المؤهل للوساطة، مسوغا ذلك بما يملكه من مؤهلات علمية وأخلاقية تجنبه الشطط في الحكم. وهذا ما يسميه أرسطو ب "الإيتوس". وقد بسط في مقدمة كتابه "الوساطة" مؤهلاته وقدراته الحجاجية، كما سيتضح في المقدمة الثالثة.

2) الاستراتيجية الثانية: الانطلاق من مقدمات يسلم بها المتلقي، وهي كالآتي:

المقدمة الأولى: التفاضل داعية التنافس؛ والتنافس سبب التحاسد: يقول عبد العزيز الجرجاني موجها الخطاب إلى المتلقي[1]: "التفاضل –أطال الله بقاءك– داعية التنافس؛ وأهل النقص رجلان: رجل أتاه التقصير من قبَلِه، وقعَد به عن الكمال اختيارُه، فهو يساهم الفضلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمه؛ وآخر رأى النقص بخِلْقته، ومؤثَّلا في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله، وقصرتْ به الهمة عن انتقاله؛ فلجأ إلى حسدِ الأفاضل، واستغاثَ بانتقاص الأماثل؛ يرى أن أبلغَ الأمور في جبْر نقيصته، وستْر ما كشفه العجزُ عن عورته اجتذابهم إلى مشاركته، ووسمهم بمثل سمته، وقد قيل:

إذا أراد الله نشر فضيلة *** أتاح لها لسان حسودِ"[2]

المقدمة الثانية: الحرص على الأواصر الأدبية يقتضي الدفاع عن العلماء والأدباء: وهذه مقدمة مهمة بين فيها القاضي الجرجاني مسوغات دفاعه عن المتنبي، وأنها تعود إلى ضرورة الدفاع عن العلماء حرصا على الأواصر الأدبية. وقد وضح فيها أنه ليس من المتعصبين

1– وقد يكون هذا المتلقي هنا محددا، ولعله الصاحب بن عباد الذي كان من خصوم المتنبي.

2– الوساطة ص 1.

للمتنبي، ولا من أقربائه، وإنما دفعه إلى الانتصار له، حق الأدباء بعضهم على بعض. يقول مبينا ما تستدعيه بنوة العلم وأخوة الأدب: "ولمْ تزلِ العلوم - أيدك الله - لأهلها أنسابا تتناصر بها، والآداب لأبنائها أرحاما تتواصل عليها، وأدنى الشرك في نسب جوار، وأول حقوق الجار الامتعاض له، والمحاماة دونه، وما مَنْ حفِظَ دمه أن يسفك، بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك ولا حرمة أولى بالعناية، وأحقُّ بالحماية، وأجدر أن يبذُلَ الكريم دونها عرضَه، ويمتهن في إعزازها ماله ونفسه منْ حرمة العلم الذي هو رونقُ وجهه، ووقاية قدره، ومنار اسمه، ومطيةَ ذكره"[1].

المقدمة الثالثة: ضرورة التزام العدل والإنصاف في الدفاع عن أهل العلم والأدب: وقد تضمنت هذه المقدمة مبادئ مهمة في الحجاج وفي طرق وأساليب إقناع المعارض/ المحاجَج والتأثير فيه واستمالته، وجعله يسلم ببرهانك وبرأيك، ويشك في علمه وحججه. وهي مقدمة تكشف عن خبرة القاضي في المحاججة، ومعرفته بطرق الإقناع، يقول:" وكما ليس من شرط صلة رحمك أنْ تحيف لها على الحق، أو تميل في نصرها عن القصد، فكذلك ليس من حُكْم مراعاة الأدب أنْ تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه إلى الإسراف، بل تتصرف في حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك، فتتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك إذا أنكرت، وتقيم الاستسلام للحجة – إذا قامتْ – محتجا عنك إذا خالَفْت، فإنه لا حال أشدُّ استعطافا للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة، من توقفك عند الشبهة إذا عَرَضتْ، واسترسالك للحجة إذا قهرت، والحكم على نفسك إذا قامت الدعوى عليها،وتنبيه خصمك على مكامن حيلك إذا ذهب عنها؛ ومتى عُرِفْت بذلك صار برهانك مسلَّما، ورأيك دليلا قاطعا، واتهم خصمك ما علمَه وتيقنه، وشك فيما حفظه وأتقنه، وارتاب بشهوده، وإن عدَّلَتْهم المحبة، وجَبُنَ عن إظهار حججه وإنْ لمْ تكنْ فيها غميزة، وتحامتك الخواطر فلم تقدم عليك إلا بعد الثقة، وهابتك الألسن فلم تعرض لك إلا في الفرط والنَّدرة"[2].

المقدمة الرابعة: أهل الأدب في أبي الطيب المتنبي بين معْجب به، مطنب مُسْرف في تقريظه، وعائبٍ يرومُ إزالته عن رتبته، يجتهد في إخفاء محاسنه وإظهار معايبه. يقول: "وكلا الفريقين

1- المصدر السابق ص2.
2- الوساطة ص 2-3.

إما ظالم له أو للأدب فيه؛ وكما أن الانتصارَ جانبٌ من العدل لا يسده الاعتذار؛ فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار، ومن لم يفرق بينهما وقفتْ به الملامة بين تفريط المُقصِّر، وإسراف المفرِط، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، وأقام بين كل حديث فصلا؛ وليس يطالب البشر بما ليس في طبع البشر، ولا يُلتَمس عند الآدمي إلا ما كان في طبعة ولد آدم؛ وإذا كانت الخِلْقة مبنيةً على السهو وممزوجة بالنسيان؛ فاستسقاط من عزَّ حاله حيْفٌ، والتحاملُ على من وُجِّهَ إليه ظلم"[1].

المقدمة الخامسة: الخطأ وارد عند جميع العلماء والأدباء والشعراء: "وللفضْل آثار ظاهرة، وللتقدم شواهد صادقة، فمتى وجِدتْ تلك الآثار، وشوهدتْ هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم؛ فإنْ عُثِرَ له من بعد على زلَّة، ووجدتْ له بعقب الإحسان هفوة انتحِلَ له عذر صادق، أو رخصة سائغة؛ فإن أعوز قيل: زلةُ عالم، وقلَّ من خلا منها، وأيُّ الرجال المهذَّبُ!"[2].

وهذه مقدمة كبرى عند القاضي الجرجاني، سوف ينطلق منها للدفاع عن أبي الطيب المتنبي، ولبيان أنه ليس الشاعر الوحيد الذي أخطأ فيما عيب عليه. فقد بدأ الجزء الأول من كتابه[3] بباب عَنْونَه: " أغاليط الشعراء"[4]، تتبع فيه نماذج من أخطاء الشعراء الفحول، و من أقوال اللغويين والنقاد في تلك الأخطاء، وكيف أنها لم تؤثر على مكانتهم عند النقاد، يقول : "ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه؛ إما في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه، أو إعرابه؟"[5].

3) الاستراتيجية الثالثة: تفسير القاضي الجرجاني أسباب التحامل على المتنبي وأصناف أهل الأدب في شعره، وقد أرجع الأسباب إلى:

- ✓ كثرة أعدائه وخصومه.
- ✓ كثرة المنافسين له. "أهل الأدب في أبي الطيب المتنبي بين معْجب به، مطنب مُسْرف في تقريظه، وعائبٍ يرومُ إزالته عن رتبته، يجتهد في إخفاء محاسنه وإظهار معايبه".

1- المصدر السابق 3-4.

2 - المصدر السابق، ص 4.

3 - يمكن اعتبار الجزء الأول من كتاب الوساطة مقدمة للكتاب، إذ نجده إلى حدود نهاية هذا الجزء في الصفحة 48، يتطرق لأغاليط الشعراء، ولمفهوم الشعر، وتفاوت الشعراء تبعا لبيئاتهم وأزمانهم، وقضايا أخرى تتعلق بالبلاغة والبديع.

4 - استغرق عنده هذا الباب عدة صفحات امتدت من الصفحة 4 إلى الصفحة 15.

5 - الوساطة، ص 4.

4) الاستراتيجية الرابعة: تخطئة القاضي للفريقين ليبين أن المنهج الأصوب هو ما سيسلكه، "وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه؛ وكما أن الانتصارَ جانبٌ من العدل لا يسده الاعتذار؛ فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار".

5) الاستراتيجية الخامسة: بيان منهجه في الدفاع عن المتنبي وأنه يقوم على التزام العدل والإنصاف في الدفاع عن أهل العلم والأدب؛

وفيما يلي توضيح لتراتبية الحجج والأدلة عند القاضي الجرجاني :

السلم الحجاجي:

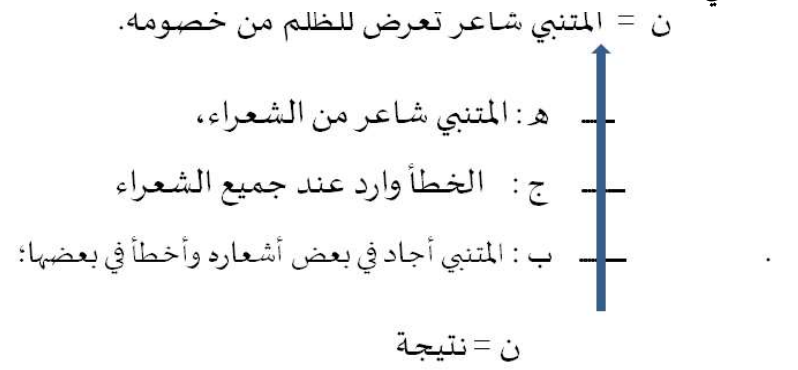

خصائص المقاربة الحجاجية عند القاضي الجرجاني:

انطلق القاضي الجرجاني من مقدمات حجاجية، فسر بها إقدامه على التأليف في الوساطة بين المتنبي وخصومه، وأقنعنا أنه أهل لتلك الوساطة، وأنه يملك آليات الحجاج والإقناع، وهو مؤهل خلُقيا للقيام بذلك، يلتزم العدل والإنصاف في الدفاع عن أهل العلم والأدب. ثم دافع في كتابه على الشاعر المتنبي بطريقة استدلالية تقوم على مقارنة شعره بشعر غيره، في القضايا التي اتهم فيها، كالاستعارات والمعاني البعيدة والسرقات، وغيرها من القضايا.

أ. أساليب البرهنة والاستدلال: جاءت أساليب البرهنة والاستدلال متنوعة في مقدمة كتاب الوساطة بين السرد والمقارنة والشرح والتفسير والمثال والاستشهاد.

-**السرد**: وبه بدأت المقدمة، إذ افتتح القاضي خطابه التقديمي بسرد مجموعة من الحقائق المسلم بها، جعلها منطلقات ومقدمات يفسر بها إقدامه على إنصاف المتنبي ومنها قوله:

– التفاضل داعية التنافس – التنافس سبب التحاسد – أهل النقص رجلان – رجل أتاه التقصير من قبله .... – وآخر رأى النقص ممتزجا بخلقته.... – ولم تزل العلوم أيدك الله لأهلها أنسابا تتناصر بها، والآداب لأبنائها أرحاما نتواصل بها....

- **أسلوب الشرح والتفسير**: و على أساسه عرض المؤلف الأفكار السابقة، المتعلقة بأهل النقص.
- **أسلوب الاستشهاد** : ومنه استشهاده ببيت أبي تمام وتعليقه عليه. وقد كثر عنده هذا الأسلوب بعد المقدمة، وبه عرض علينا أخطاء الشعراء القدامى[1].
- **أسلوب المقارنة**: وعلى أساس هذا الأسلوب سينتصر القاضي للمتنبي، إذ سيقارن أشعاره بأشعار غيره من الشعراء القدامى ليخلص إلى أن ما عيبَ عليه يوجد نظيره عند الشعراء القدامى.
- **أسلوب التعليق**: تعليقه على بيت أبي تمام وحكمه عليه بالصدق " صدق والله وأحسن"، ثم شرحه وتفسيره لهذا الحكم.[2]

ب. **أساليب الحجاج البلاغية**: وقد جاءت مقدمة القاضي الجرجاني غنية بالأساليب البلاغية التي اتخذت طابعا حجاجيا إقناعيا، وغلب عليها أسلوب الخبر الذي تنوعت أساليبه في هذه المقدمة بين الخبر المثبت والخبر المنفي، والخبر المؤكد، والخبر الشرطي، وفيما يلي نماذج ذلك:

1– الخبر المثبت: التفاضل داعية التنافس – التنافس سبب التحاسد – أهل النقص رجلان – رجل أتاه التقصير من قبله – وللفضْل آثار ظاهرة، وللتقدم شواهد صادقة.

2– الخبر المؤكد: "... وقد جعل الله لكل شيء قدرا، وأقام بين كل حديث فصلا.."

3– الخبر الشرطي: "... فمتى وجِدتْ تلك الآثار، وشوهدتْ هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم؛ فإنْ عُثِرَ له من بعد على زلَّة، ووجدتْ له بعقب الإحسان هفوة انتحِلَ له عذر صادق، أو رخصة سائغة؛ فإن أعوز قيل: زلةُ عالم، وقلَّ من خلا منها، وأيُّ الرجال المهذَّبُ..." ".. وإذا كانت الخِلْقة مبنيةً على السهو وممزوجة بالنسيان؛ فاستسقاط من عزَّ حاله حيْفٌ، والتحاملُ على من وُجِّهَ إليه ظلم"[3].

1– الوساطة ص 5 وما بعدها.

2– الوساطة ص 1–2.

3 – المصدر السابق 3–4.

4- الخبر المنفي: "... وكما أن الانتصارَ جانبٌ من العدل لا يسده الاعتذار.... - ومن لم يفرق بينهما وقفتْ به الملامة بين تفريط المُقصِّر، وإسراف المفرِط... - وليس يطالب البشر بما ليس في طبع البشر...."

- الخبر المفيد للدعاء: حفظك الله - أيدك الله - أطال الله بقاءك ... وهو خبر استدعاه المقام التواصلي، ومقصدية الحجاج، ونوع المحاجَج، الذي منه من كان في السلطة، كالمعتمد بن عباد.

5- أسلوب القصر: " ولا يُلتَمس عند الآدمي إلا ما كان في طبعة ولد آدم...".

6- الإنشاء الطلبي:

ورغم أن الأسلوب الخبري هو المهيمن في مقدمة القاضي الجرجاني، فإنه وظف أسلوبي الأمر والاستفهام في سياق الحجاج. وهذا ما يتضح من قوله : "ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه؛ إما في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه، أو إعرابه؟"[1].

ففي الفقرة ثلاثة أساليب إنشائية طلبية:

1) أسلوب الأمر، بصيغتين:

- فدونك: اسم فعل أمر بمعنى خذْ...

- انظر: فعل أمر. والمخاطب ليس في مقام الأمر، وإنما قصد هنا الالتماس والدعوة إلى الاستفادة وإلى الدليل.

2) أسلوب استفهام ونصه:

-" هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر ..."، وهو استفهام حجاجي يقصد منه النفي والتحدي.

- " وأي الرجال المهذب !".

- "وأي عالم سمعت به ولم يزِل ويغلط أو شاعر انتهى إليك لم يهفُ ويسقط !"

والاستفهام في المثالين السابقين يفيد النفي المشوب بالتعجب، ووظيفته الحجاجية تأكيد موقف القاضي الجرجاني بأن كل الشعراء معرضون للخطإ، وبالتالي فالمتنبي شاعر يعذر فيما أخطأ فيه. إنه استفهام يختزل حججا شبه منطقية يمكن إعادة صياغته على النحو التالي:

1 - الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 4.

– الشعراء القدامى يخطئون أحيانا في أشعارهم.
– المتنبي شاعر.
– إذن من الطبيعي أن يخطئ المتنبي في بعض أشعاره.

3) أسلوب القسم، وهو من الأساليب الإنشائية غير الطلبية الواردة في المقدمة ومنه قوله تعليقا على بيت أبي تمام: – "صدق والله وأحسن".

الروابط الحجاجية:

يمكن التمييز بين أنماط عديدة من الروابط:

أ– الروابط المدرجة للحجج: (حتى، بل، لكن، مع ذلك، لأن...) والروابط المدرجة للنتائج: (إذن، لهذا، وبالتالي...).

ب– الروابط التي تدرج حججا قوية (حتى، بل ، لكن، لا سيما...) والروابط التي تدرج حججا ضعيفة.

ج– روابط التعارض الحجاجي (بل، لكن، مع ذلك.....) وروابط التساوق الحجاجي (حتى، لا سيما...)[1].

إن ما يقدمه هذا النموذج الحجاجي اللساني من آليات يمكن توظيفه واستثماره في تحليل الخطاب الحجاجي، لأنه يمدنا بآليات جديدة تسعف في التحليل، وهي الروابط والعوامل الحجاجية والسلم الحجاجي. فالخطاب النقدي العربي غني بهذه الروابط والعوامل، لذلك فمن المفيد الانفتاح على هذا النموذج وعدم الاقتصار على النماذج البلاغية وحدها. ولتأكيد أهمية هذا النموذج سنعمل على تطبيقه على خطاب المقدمة عند النقاد موضوع الدراسة.

وأبدأ بالقول إن هذا الخطاب، شأنه في ذلك شأن معظم الخطابات النقدية العربية، قد جاء غنيا بالروابط، وإن هذه الروابط قد أدت أدوارا حجاجية مهمة، بل لا أبالغ إن قلت – دون تردد – إن الروابط الحجاجية هي التي أعطت للأساليب البلاغية أبعادها الحجاجية الإقناعية، إذ نقلتها من مجرد الإخبار إلى الحجاج والإقناع؛ بالتأكيد والنفي والقصر والشرط والاستدراك والاستثناء والإضراب... وهل يمكن الحديث عن الخبر المؤكد أو المنفي أو الشرطي أو الحصري والقصري دون تلك الروابط؟

1– ينظر ، الحجاج في اللغة لأبي بكر العزاوي.

وقد جاء خطاب المقدمة عند القاضي الجرجاني غنيا بالروابط التي حققت له اتساقه وانسجامه، وفضلا عن ذلك جعلته خطابا حجاجيا مقنعا. ومن الروابط الحجاجية التي توسل بها القاضي الجرجاني لمحاججة مخاطبه:

- ✓ **الروابط الدالة على التأكيد**: إن – قد – والله ...
- ✓ **الروابط الدالة على النفي** : لا – ليس – لم ...
- ✓ **الروابط الدالة على القصر**: لا... إلا ... – ليس... إلا ...
- ✓ **الروابط الدالة على الشرط** : إذا – إنْ – متى– لولا ...
- ✓ **الروابط الدالة على الإضافة** : الو – كما – فكذلك ...

وقد كثُر في مقدمة القاضي الجرجاني الربط بالواو لأنه يصل بين عدة حجج يدعم بها المؤلف موقفه، فلننظر – على سبيل المثال – الفقرة الأولى من مقدمته، وكيف كثُرت فيها الجمل الموصولة بالواو، وكيف أسهم ذلك الوصل في الحجاج[1].

- ✓ **الروابط الدالة على التخيير**: لقد أكثر الجرجاني من الرابط "أو" في مقدمته، لأنه يقدم عبره عدة اختيارات قصد إقناع الخصم. من ذلك قوله: "ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت **أو** أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه؛ إما في لفظه ونظمه، **أو** ترتيبه وتقسيمه، **أو** معناه، أو إعرابه؟"[2].

وعموما، فقد جاءت مقدمة الوساطة للقاضي الجرجاني غنية بالخطاب الحجاجي، وبالحجج والأدلة الجاهزة والتقنية وبأساليب الحجاج وتقنياته وروابطه، مما جعلها خطابا بليغا مقنعا، نجح صاحبه في الرد على خصوم المتنبي، وفي إقناع المتلقي، وبالتالي إنصاف المتنبي.

خاتمة

نخلص مما سبق، إلى أن المقدمات النقدية المدروسة في هذا البحث، قد تضمنت خطابات نقدية حجاجية واضحة المعالم والأسس والتقنيات والآليات. فقد عالجت تلك المقدمات قضية من قضايا النقد العربي القديم التي شغلت الأوساط النقدية، وعرفت تفاعلا وتبايُنا في الآراء والمواقف.

1– الوساطة ص 1.
2– نفسه، ص 4.

ويتبين من تتبع تلك الخطابات النقدية في النماذج المدروسة، أن كل ناقد قد جند طاقاته وقدراته الحجاجية للإقناع بموقفه من تلك القضية ولمناقشة الآراء المعارضة والرد عليها.

كل ذلك بخطاب بليغ، توفرت له شروط الإقناع، وعناصر التأثير والإمتاع، وجمع بين الحجج التقنية والحجج الجاهزة، وبين أساليب الحجاج غير اللغوية، وأساليب الحجاج البلاغية واللغوية. وقد زاد من بلاغة ذلك الخطاب وتماسكه وانسجامه عناصر الربط الحجاجية اللفظية والمعنوية.

ومن جهة أخرى، كشف البحث في تلك المقدمات، أن تراثنا النقدي غني بآليات الحجاج وأسسه وأساليبه، وأن أفضل مقاربة للتعامل معه هي المقاربة الحجاجية الموسعة، التي تستفيد من مختلف المقاربات البلاغية واللسانية.

- **المصادر والمراجع:**

- أسرار البلاغة في علم البيان عبد القاهر الجرجاني تحقيق للدكتورين محمد الاسكندراني وم.بمسعود، دار الكتاب العربي، ط2/ 1418هـ، 1998م.
- البرهان في وجوه البيان، تأليف أبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة.
- بلاغة الإقناع، عبد العالي قادا، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (1438هـ/ 2016 م).
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، إفريقيا الشرق – المغرب، (يناير 2005).
- البلاغة والأسلوبية، هنريش بليث، ترجمة وتقديم وتعليق د. محمد العمري، منشورات دراسات سال، الطبعة الأولى 1989، البيضاء.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، دار الحكمة، بيروت، لبنان.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الدكتور إحسان عباس، الطبعة الرابعة (1983)،دار الثقافة بيروت (لبنان).
- التداولية والحجاج ، مداخل ونصوص، صابر الحباشة، صفحات للدراسة والنشر، دمشق (م2008).
- الحجاج الموسع: الأسس والمبادئ، أبو بكر العزاوي، مطبعة وراقة بلال، فاس – المعرب، الطبعة الأولى 2022م.
- الحيوان لأبي عثمان الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار الجيل، بيروت، ط/ 1412هـ،1992م.
- الدرس البلاغي العربي بين السميائيات وتحليل الخطاب، لخذاري سعد، دار الأمان (الرباط) الطبعة الأولى 1438ه/ 2017م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة (1413 هـ، 1992م).

- الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق دي غويه، وتعليقات الدكتور محمد يوسف نجم والدكتور إحسان عباس،دار الثقافة، بيروت(دون رقم ولا تاريخ).
- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشردار المدني بمكة.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق الدكتور محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط1/ 1988،1408م.
- عيار الشعر لمحمد أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ط1/ 1402هـ،1982م.
- الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، تح د. محمد غياض، دار الحرية للطباعة، بغداد (1973).
- فصول في النقد العربي وقضاياه للدكتور محمد خير شيخ موسى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1/ 1404هـ، 1984م.
- في النقد الأدبي القديم عند العرب، الدكتور مصطفى عبد الرحمان، مكة للطباعة، (1419هـ\ 1998م).
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، إفريقيا الشرق – المغرب، ط2 (2002).
- الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط 3 (1418 ه/ 1997م).
- كتاب البديع لأبي العباس عبد الله بن المعتز، شرحه وحققه عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى 1433هـ\ 2012م.
- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط/ 1406هـ،1986م.
- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2/ 1407هـ،1987م.
- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت–لبنان، ط 2 (2009).
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثالثة (1986).
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشرالآمدي، تحقيق السيد أحمد صقر،ط 4 ، دار المعارف.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، لأبي عبد الله المرزباني، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1 (1415ه/ 1995م) بيروت–لبنان.
- النظرية الحجاجية، مجمد طروس، دار الثقافة، الطبعة الأولى (1426هـ\2005).
- نقد الشعر، تأليف أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق الدكتور عبد المنعم خفاجي دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (دون تاريخ).
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
- وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت (دون رقم ولا تاريخ).